10 نمط من أنماط الحياة

أيها الطبيب، لو أمسكت هذا الماء بيدي وعرضته للشمس وبخرته قليلاً، هل يصلح للشرب؟

حدق الدكتور هينز في الماء الرقراق الذي كان البحار الشاب يغترفه في يديه، وشعر هو نفسه بدافع يتعذر كبحه تقريباً للإحساس ببرود الماء وهو ينسكب في حنجرته الظمأى. كان ذلك عصر يوم الثلاثاء، بعد غرق السفينة بنحو أربعين ساعة، وتحت الشمس الساطعة بلا هوادة، طغى على الناجين ظمأ يفضي إلى الجنون. كانوا مغمورين في الماء حتى أعناقهم تقريباً، ومع ذلك لم يكن بوسعهم شرب قطرة واحدة ـ وإلاَّ سوف يسعرون ويموتون. أحس هينز بعيون الرجال المحترقة وهي «تُحفر» بداخله وهم بانتظار سماع جوابه.

أجاب هينز: «كلا يا بني. من شأن ذلك زيادة ملوحة الماء. يجب ألاَّ تشرب».

وبحلول هذا الوقت، سوف يفتقدونهم في لايته. طلب إلى الرجال التحمُّل بضع ساعات أخرى فقط ويمكنهم آنذاك أن يشربوا مقدار ما يرغبون.

ولكن أدرك هينز من النظرة المجنونة في أعين بعض الرجال، سيما الشبان الذين ليست لديهم مسؤوليات عائلية تضطرهم إلى التحمل، أن كلماته تذهب أدراج الرياح، حتى وإن سُمعت. ولكي يوقف أولئك الذين بدؤوا في الشرب، ضربهم وهو يصرخ: «لا تشربوا! لا تشربوا! هل تريدون أن تموتوا؟».

ولكنه استسلم أخيراً. ما الفائدة؟ هناك الكثير منهم والماء موجود في كل مكان. وبدأ الرجال الواحد تلو الآخر يأخذون الماء المميت في أيديهم ويبتلعونه حتى الانتفاخ.

وسرعان ما حل الهذيان. في البداية، أخذوا يهذون ثم يلبطون بعنف وبنشاط جنوني لدرجة أن الرجال الآخرين لم يتمكنوا من السيطرة عليهم بسهولة بسبب ما كانوا يعانون من إنهاك.

مع ذلك، نجح القليل منهم في ذلك من أجل إنقاذ زملائهم المسعورين. ساعد هينز في تعويم صديقه العزيز، الضابط ليبسكي، أحد آخر المصابين بجروح بالغة ممن بقوا على قيد الحياة. وأنصت هينز إلى كلماته وهو يحتضر: «إنني ذاهب الآن، يا لو. أرجو أن تخبر زوجتي بأنني أحبها وينبغي لها أن تتزوج مرة أخرى».

ثم ارتخى رأسه وأدرك هينز أنه قد مات. عانق الجثة ونزع سترة النجاة التي يمكن أن يستفيد منها شخص آخر، وأخذ يراقب الجثة وهي تنزلق تحت الأمواج.

ومع موت مزيد من الرجال، رضخت القيم الدنيوية للقيم

الروحية ومنحت أولئك الذين لا زالوا أحياء نوعاً من الاطمئنان حتى في خضم الكارثة. كان هينز ممتناً لكون صديقه الآخر، الأب كونواي، قريباً يساعد الرجال على حب الله ويؤمهم في الصلاة. ولكن في ليل الثلاثاء، توقف القسيس عن التنقل بينهم، إذ شأنه شأن الكثير من رعيته، انهار من الإنهاك وأخذ يهذي.

كاد كونواي يطفو على سطح الماء نحو حتفه عندما أمسك به غارلاند رتش، الشاب التكساسي الذي كان يلعب كرة القدم بقيادة الملازم ماكيك وظل ينزل في الماء ويجمع ويساند الكثير من الجرحى. ولكن بعد أن أمسك رتش بالقسيس لفترة من الوقت وجاهد في تهدئته وهو يلبط في الماء ويهذي، أحس أنه هو أيضاً مريض وفي منتهى الإنهاك لدرجة أنه لم يعد بوسعه الاستمرار في دوره البطولي.

نادى رتش الطبيب الذي سبح نحوه على الفور. طلب رتش من الطبيب أن يحل محله لفترة ما، إذ لم يعد يستطيع الاستمرار في الإمساك بالقسيس.

أدخل هينز ذراعه عبر سترة النجاة التي كان يرتديها كونواي وذلك من أجل السيطرة على حركاته الجامحة، ثم عانق صديقه الذي عرف أنه يعاني سكرات الموت. أحس الطبيب أنه منهك عاطفياً، خاصة بعد أن شاهد ليسكي يغرق في البحر. والآن جاء دور صديق آخر. كم رجلاً سيموت بين ذراعيه؟ كان يريد أن يخبر القسيس أشياء كثيرة جداً، وأن يشكره مرة أخرى على المبلغ الذي مكنه من الذهاب

إلى منزله لرؤية أسرته وعلى فرصة ترتيل الترنيمات البروتستانتية كل يوم أحد والتي منحته القوة منذ طفولته، والأهم من كل هذا، يريد أن يشكره على ما بذل من جهود للتخفيف من معاناة هؤلاء الناس. كان الأب كونواي رجلاً خدم جميع الرجال، وقد أصبح الآن بعيداً عن متناولهم جميعاً.

ويبدو أن غارلاند رتش كان هو الآخر في طريقه إلى نفس المصير وقد لمحه هينز على مسافة ما في ضوء القمر. فقد توقف عن التجذيف وانحنى رأسه إلى الأمام، حتى سطح البحر تقريباً. هل كان رتش يحتضر أيضاً؟ شعر هينز بالكرب. طلب مساعدة ولكن لم يسمعه أحد، على الأقل لم يسمعه أي شخص سليم العقل بما فيه الكفاية ليستجيب. ماذا ينبغي له أن يفعل؟ أي من الرجلين المنكوبين ينبغي أن يدعه يغرق؟

في أثناء ذلك، يبدو أن الملازم ماكيك، الذي لم يسمع نداء هينز رغم كونه بالقرب منه، سمع صوتاً خافتاً آخر في الليل يقول: «أيها المدرب، تعال ساعدني! أيها المدرب، ساعدني».

إنه غارلاند رتش. ولكن من أين مصدر الصوت؟ جال ماكيك ببصره البحر المضاء بنور القمر. لقد تبعثر الرجال ولم يشاهد أحداً. سبح باتجاه واحد. ثم باتجاه آخر، وهو يخبط الماء بهلع، ولكن ما زال تلميذه القديم يراوغه بينما كان الصوت يخفت أكثر فأكثر.

صاح ماكيسيك: «يا غارلاند! يا غالارند! أين أنت؟».

إنه مدرب الفتى، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يدعه يموت.

وكذلك الأمر بالنسبة لهينز الذي كان ينادي اسم رتش. عرف أن مجرد الكلمات لا يمكنها انتزاع الشاب من الهاوية، ولكن ما من شيء آخر يستطيع عمله. رغم أن الأب كونواي كان سيحتج على قرار هينز لو كان مسيطراً على جميع حواسه، لم يتمكن الطبيب من أن يسلب من صديقه ولو دقيقة إضافية واحدة من حياته. وهكذا ظل هينز يراقب وهو مغلوب على أمره بينما غاص وجه رتش في الماء وانساب جسمه بعيداً.

«غارلاند! غارلاند!» ثم لم يبق سوى صوت الأمواج الأزلي.

بعد ذلك بوقت قصير، توقف الأب كونواي عن التخبط وبارك الدكتور هينز باندفاعات متقطعة من العقلانية. ثم غادر الأب أيضاً ـ إلى أرض فيها على الدوام ما يكفي من الطعام والماء وحيث لا أحد يحتاج إلى سترة نجاة أو إلى شخص يمسك برأسه ليبقيه خارج الماء.

في ذلك الصباح، كان ثمة ما يكفي من حصص الطعام حتى في أرض الأحياء ـ على الأقل لمجموعة الملازم ردمين التي قيل إنها سرقت بعض الحصص التي وجدتها على رمثين، وأخذ رجال المجموعة يتخمون بطونهم بسبام وأقراص حليب الملت، بينما كان رفاقهم المذعورون يراقبونهم بمَعِدَات مزمجرة وحناجر خشنة، وكانوا في غاية الفتور والضعف بحيث تعذر عليهم إيقافهم.

حين علم الضابط توايبل بذلك، استشاط غضباً. إنه ظلم شائن!

سبح نحو رمث ردمين وأخبره عن هذا الانحلال في الحد المتواضع من الانضباط الذي حاق بالرجال بعد أن كافحوا في البداية للحصول على أماكن على الرماث. قال توايبل إن زعيم الفتنة رأس مجموعة صغيرة شعرت أنها خارج نطاق البحرية وإن كل رجل حر في التصرف كما يحلو له.

وافق ردمين على أن ما حصل شائن. فقد حان الوقت للكشف عن نفسه والإمساك بزمام الأمور. أصبح الرجال في الماء منهكي القوى ولم يعودوا يتقاتلون بنفس الهمة السابقة. وبالتالي شعر بمزيد من الثقة الآن. على أية حال، قد تكون هذه فرصته الأخيرة ليثبت لنفسه وللجميع أنه قائد يحسب له ألف حساب. استجمع قواه ووقف على حافة الرمث وصاح: «أنا الملازم ردمين، كبير المهندسين، ويبدو أنني أنا الضابط الأعلى مقاماً في المجموعة».

أنصت الرجال ولكن دون مبالاة. من يبالي ويهتم بالرتب الآن؟ في واقع الأمر، لم يسمع بعض أفراد الطاقم الجدد عنه قط، بينما أبدى آخرون الامتعاض. لماذا لم يوقف كبير المهندسين جميع المحركات قبل غرق السفينة؟ كانت تلازمهم صورة الداسر الدوار وهو يطحن بعض رفاقهم وهم يقفزون إلى الماء من على متن السفينة. ولكن أدرك ردمين أن عليه إثبات سلطته الآن وإلاّ لن يتقبلها الناجون أبداً. في الوقت نفسه، يمكنه واقعياً زيادة آمالهم في إنقاذ وشيك وإلاّ قد ينقلبون ضده إذا كان مخطئاً؛ وبالتالي وصف «أسوأ» سيناريو.

قال: «بحلول نهاية النهار، سوف تقلق لايته ـ وتخميني أنهم سيرسلون طائرات للبحث عنا صباح الغد. إنهم يعرفون سرعتنا ومسار الطيران بالضبط. وهكذا قد تشاهدنا الطائرات قبل حلول الظلام غداً، وقد نرى سفناً في وقت متأخر من يوم الخميس على أبعد تقدير. وقبل ذلك، ستلقي الطائرات لنا بالتأكيد طعاماً ومعدات وما إلى ذلك».

شعر ردمين أن الإغاثة ستصل في وقت أبكر على الأرجح ولكنه لم يستطع تصور وصولها متأخرة.

أعلنه أنه لحسن الحظ لم يكن الرجال دون طعام أو ماء، فهناك على متن الرماث أربعة براميل صغيرة مملوءة بالماء العذب وبعض السبام والبسكويت وأقراص حليب الملت. ولكن لا يسمح لأي كان بأن يأكل أو يشرب حتى اليوم التالي، أي يوم الأربعاء، للتأكد من عدم نفاد المؤن قبل وصول الإغاثة. حث ردمين الرجال على جلب كل الطعام والماء إلى رمثه للتأكد من حمايته، وشعر بالسعادة عندما سبح قليل من الرجال إلى رمثه وجلبوا معهم بعض الحصص، خشية من أن يستولي «اللصوص» عليها.

في الحقيقة، قلة من الرجال وثقوا بالفعل بردمين ـ أو في الواقع بأي شخص آخر، وبالتأكيد حين تكون السلع ثمينة بهذا القدر. ولكن إذا كان الرجال منهكي القوى، إن لم يكونوا معاقين، جسدياً وعقلياً، وجدوا من الأيسر لهم الآن تلقي الأوامر بدلاً من استنزاف طاقتهم

الواهنة في الاحتجاج والمقاومة. وفي أثناء ذلك، التزم «اللصوص» الصمت وهم يواصلون مضغ الطعام المحرم.

وبعد وقت قصير، سبح توايبل نحو رمث زعيم التمرد لمجابهته. وكما يروي توايبل فيما بعد: «لم أكن خائفاً منه أو من الأشخاص الذين كانوا معه. تعلمت كيف أتصرف. وعلاوة على ذلك، كان هؤلاء الناس جبناء في قلوبهم وإلاَّ لما خافوا الآخرين. رأس [زعيم التمرد] مجموعة يمكن أن تدمرنا جميعاً. كان من شأن الهلع أن يضع حداً لفرصنا في البقاء أحياء. لو سمح له ولمجموعته بالنجاح بالتخويف، الله وحده يعلم ماذا كان سيحدث».

اقترب توايبل من رمث زعيم التمرد، واستشاط غضباً حين شاهد ما كان يختزن الرجل من طعام وماء. صاح طالباً منه إعادة كل الطعام والماء.

اختطف الحصص ثم سبح إلى رمث ثان واستولى على الطعام والماء اللذين كان رفاق الرجل يستهلكونهما هناك وعاد إلى رمث «القيادة» يجر وراءه الغنيمة الثمينة.

(نفى «زعيم التمرد» المتهم للمؤلف أخذه أي طعام أو ماء وجادل قائلاً إنه إذ كان ضابط النظام على متن السفينة، أي كان شرطياً يطبق الأنظمة، أصبح له الكثير من الأعداء، وبالتالي كانوا يسعون إلى الانتقام منه ليس إلاَّ ـ رغم أن توايبل، الذي جاهر بسعيه لتطبيق العدالة لم يكن عادة رجلاً يهزأ بالأنظمة).

أياً كانت الحقيقة، فإن الانضباط الذي ولَّده الإنهاك الأقصى بعد العنف بات يواجه خطر الانهيار بعد ما تحولت الحقيقة إلى وهم. ابتلع مزيد من الرجال الماء المالح، بعضهم عمداً والبعض الآخر مصادفة ـ بسبب تناثر الماء المتواصل من الأمواج على وجوههم التي أصبحت قريبة من مستوى الماء لأن سترات وأحزمة النجاة فقدت طفويتها تدريجياً. ووردت بالفعل تقارير عن حدوث عنف منحرف: فقد قيل إن رجلاً على أحد الرماث تعرض لهجوم من قبل زملاء مخبولين منحرفين.

وكان رد توايبل على تقارير عدم الانضباط هذه هو تلاوة صلاة الرب باستمرار.

> قال: «على أية حال، لقد قدت معظم المجموعة في الماء ولا بد أنهم شعروا أنني سأقودهم خارج الماء». كان يتعين عليه «منعهم من الاستسلام... وعندما فشل كل شيء آخر، كانت الصلاة هي التي تعيدهم على ما يبدو».

أجل، كان الملازم ردمين الضابط الأعلى رتبة ولكن لحمه كان لا زال مشتعلاً ولا زال ذهنه راسياً في غرفة المحركات مع رجاله. كان توايبل متأكداً من أن جميع الرجال يعرفون أنه الرجل الذي سيقودهم إلى بر الأمان بدعم من السماء.

في الظلام المخيف لليل الثلاثاء، بدا أن أشد الصلوات خشوعاً لم تكن لتستطيع إنقاذ الرجال الذين كانوا في مجموعة الدكتور هينز المجزأة والتي كانت بلا رماث وبلا شباك عوم وبلا طعام وبلا ماء

عذب. فَقَدَ معظمهم عقولهم، إذ عانوا مثل البحارة في المجموعات الأخرى من رهاب الضوء والغثيان والنكاز وتقرحات في أعناقهم نتيجة قبات القبعات التي كانت تحك جلودهم وغير ذلك من الاعتلالات. وكما خشي هينز، فقد أرهقت أجسامهم القشعريرة الشديدة والحُمَّىٰ الناجمتين عن الإنهاك وفقدان السوائل مما عجل في الخبل العام. وغدت المجموعة تدريجياً «كتلة من رجال بطاحيين يصرخون على نحو هستيري» بعد ما وجدوا أنفسهم عالقين في عالم أوهام مريع. صاح أحد الرجال: «يوجد ياباني هنا. إنه يحاول قتلي».

إنها صرخة واضحة نحو الجنون، تكتسح البقية الباقية من العقل.

صرخ صوت آخر: «إنه ذاهب. أمسكوا الياباني. اقتلوه!».

حسب كلمات الدكتور هينز: «كان البحر يدوي بصراخ مخلوقات مهووسة كانت في تخيلاتها المجنونة ينقلب فجأة أحدهم ضد الآخر. نشبت معارك وأصبح الرجال الذين سبق وأنقذ أحدهم الآخر يسحبون السكاكين، وقد طعن العديد منهم بوحشية».

كانت السكاكين تشع في ضوء القمر عندما كان البحارة يهاجم أحدهم الآخر في طقوس من التشويه المستديم والقتل، وكان بعض الرجال ممن ليس لديهم سكاكين يمزقون سترات نجاة الآخرين ويغمسون رؤوسهم تحت الماء إلى أن يغرقوا. وقد استحوذ على

بعض الرجال الخوف من رفاق كانوا موضع ثقتهم يوماً ما، فانفصلوا عن المجموعة وتبعثروا في جميع الاتجاهات. واستمتعت أسماك القرش الحائمة في الأسفل بولائم لم تشهدها قط من قبل.

ويروي هينز: «دمَّرت الغريزة الفردية للبقاء على قيد الحياة كل ما فعلناه من أجل صالحنا العام».

ناشد هينز والكابتن بارك من مشاة البحرية الرجال المهووسين بالرجوع إلى جادة الصواب واستمرّا في لملمة الرجال الذين كانوا يسبحون بعيداً. وأخيراً انهار بارك من الجهد الذي بذله، واختفى إلى الأبد ولعله قد طعن أو التهمته أسماك القرش.

في أثناء ذلك، دفع اثنان من البحارة هينز تحت الماء وأبقياه هناك ولكنه أفلح في الصعود إلى السطح بأعجوبة. والآن، شعر الطبيب نفسه بالرعب وبدأت الهلوسات تختمر في ذهنه أيضاً. عليه الفرار من رفاقه، الرجال نفسهم الذين أحبهم وأحس بأنه مضطر لإنقاذهم.

تفسَّخت هذه المجموعة الفرعية بالكامل أشبه بالقوة النابذة لانفجار قنبلة بعد أن احتفظت بتماسكها بدقة لمدة يومين.

وبنوبة من الجنون، سبح هينز بعيداً نحو شاطىء مجهول.

كان يريد التحرك بسرعة أكبر، ولكن ظلت الأمواج تلطمه في وجهه. من كان يرشه بالماء؟ هل كانوا يمزحون معه أم كانوا يحاولون قتله؟ توقف والتفت حوله، وقد لفّ يديه المحترقتين على شكل

قبضتين جاهزتين للكم معذبيه. ولكن لم يكن هناك أحد. كان بمفرده في وسط المحيط باستثناء قمر مشع للتخفيف من هول الانجراف في عالم مظلم غير مأهول ليذكره ببزوغ فجر قريب.

وفجأة سمع صوتاً.

قال هينز: «من هناك؟».

سمع ثرثرة غريبة ثم تراجع. هل كان هناك من يريد قتله؟

مرَّت الساعات وظل يراقب حافة القمر عبر السماء ليحكم على مضي الوقت.

سمع أصواتاً أخرى تبربر. وسبح بعيداً مرة أخرى. هل سيطلع ضوء النهار قط؟ حتى أشعة الشمس كانت أفضل من سكاكين الليل. ولكن إلى متى يستطيع تحمل العزلة الهائلة؟ إلى متى يستطيع الخوف من رجال أحبهم، رجال بحاجة إليه؟

مزيد من الأصوات. يجب أن يذهب إليهم. فليقتلونه. على أية حال، يبدو أن لا فائدة من العيش في عالم فقد روحه. ولكن حين حاول السباحة نحو الأصوات، خارت قواه أخيراً. صاح هينز: «ساعدوني. ساعدوني».

كثيراً ما استجاب هو نفسه لهذا النداء. ولكنه عرف أن المجانين لا يستجيبون إلاَّ لنداء الموت.

كان غايلز ماكوي مستعداً للاستجابة لنداء الموت، حتى وإن كان متردداً، ولكن ليس كرجل مجنون. أراد أن يلتحق بالسماء وهو

صافي الذهن. ومنحته الصلاة قوة للاحتفاظ باستقرار ذهنه ورفض الأوهام. كما ساعدته في إغراق صرخات أولئك الذين اضطر إلى تركهم محصورين في قبرهم على السفينة. كان هو الكاثوليكي الوحيد في مجموعته، وصلى لنفسه بينما كان يلهو بسبحة وجدها في جيبه.

سأله أحدهم: «ما هذه؟».

قال ماكوي: «إنها سبحة». ثم طلب إليه بإلحاح أن يصلي بصوت مرتفع كي يردّد الآخرون كلماته. وقد فعل ذلك نحو عشرين مرة في اليوم.

تبادل ماكوي الجلوس على الرمث مع الآخرين وأخذ يتأمل في خطاياه وفي كل الكلمات «البذيئة» التي تفوه بها، وفي عدد المرات التي عصى فيها والديه. كان يطهر روحه استعداداً لساعة النهاية. وخلافاً لتوايبل، كان يشك في بقائه حياً. ويوماً تلو الآخر، بينما كانت الطائرات تحلق فوقهم بطيش، مات الرجال في مجموعته مستسلمين لإصاباتهم، ولقبضة فك سمك القرش، وللجنون الانتحاري، ولوهن الذهن أو الجسم الذي جعلهم يطوفون على غير هدى في الليل الخانق. بدا لماكوي الآن أن الله قد يكون على وشك استدعائه. بيد أنه كان مصمماً على أن يكون آخر الراحلين. لذلك انهمك في نوع من لعبة رهيبة مع أحد رفاقه، البحار فلتون ج. آوتلاند Felton J. Outland ـ واللعبة هي عبارة عمن سيصمد أكثر من الآخر.

تباهى ماكوي قائلاً: «حيث إنني من مشاة البحرية، فإن حالتي أفضل من حالتك. ولكن لا تقلق، فإني سأهتم بك وبالآخرين إلى أن تموت».

أجابه آوتلاند: «لست الرجل الوحيد القوي في هذه المجموعة. إني مزارع قوي إلى حد ما من كارولينا الشمالية. سوف أُعَمِّر أكثر منك».

ولكنهما اتفقا على عدم الرهان إذ لا يمكن تحصيل شيء من رجل ميت.

وبصرف النظر، فإن ماكوي أوفى بوعده واعتنى بزملائه. أبقاهم في مجموعة بربط شرائط سترات النجاة معاً، وأمسك بالمصابين، وسمح للرجال بأن يغفوا على كتفه كل بدوره، وحاول ولو بدون نجاح صيد السمك بوساطة مشبك وخيط من قميصه ومستخدماً للطعم قرصاً من حليب الملت. والأهم من كل هذا، أعاد المنهزمين، بمن فيهم إدوارد بين وهو إنسان مسكين من كنتاكي Kentucky كان قد شرب الماء المالح وأصبح مجنوناً حتى الهذيان. صفعه ماكوي على وجهه وصاح به: «اهدأ» ولكن الفتى بكى كالطفل وكان مصمماً على أن يغرق نفسه. وأخيراً، رأى بعض الرجال أن ماكوي كان يستنزف قواه فحثوه على أن يدع الفتى يذهب.

أجاب ماكوي: «لن أفعل ذلك ما دمت حياً!».

لم يوضح هذا التأكيد بالضرورة أن الشاب المعتوه سيعمر

طويلاً، وبخاصة أن ماكوي رغم قسمه على أن يكون آخر من يرحل، تساءل عن طول المدة التي يستطيع هو نفسه أن يقاوم فيها الإغراء بابتلاع ماء البحر. في أول يومين، قاسى من الجوع رغم استمرار الغثيان لديه، واشتاق إلى تذوق فطيرة اليقطين التي تعدها والدته. ولكن كل ما يريده الآن هو الماء.

اغترف ماكوي غَرْفَة من ماء البحر وحملق فيه وكأن عيناً سحرية ضخمة نومته مغناطيسياً. يا لصفاء السائل ونظافته وبرودته وهو يتألق في ضوء الشمس مثل حفنة من الماس. اشتاق لتذوقه والاستمتاع به وملء ذاته به. وحيث إنه كان يبول باستمرار، شعر أن جسمه الذي فقد الكثير من الماء أخذ يجف. ورغم أن ظمأه أصبح لا يطاق، لم يستطع أن يقنع نفسه بشرب البول ـ مثلما كان يفعل أحد الرجال. فكر في كل الماء الذي أسرف فيه في حياته والماء الذي دلقه في المرحاض. إن بقي حياً بعد هذه المحنة، سيشرب غالون ماء يومياً. أما الآن فإنه يكتفي برشفة فقط. لمس البركة الصغيرة بلسانه. الماء مالح. ولكن هل يمكن لكمية قليلة أن تكون سيئة إلى هذا الحد؟ وعلى أية حال، كان قوي البنية. ربما لن يؤذيه الماء.

ولكن تذكَّر ماكوي والدته عندئذ. كانت امرأة قوية ذاتية التثقيف وحكيمة وعرفت كيف تكون سعيدة رغم أن والده، وهو بائع زبدة، كان يعود إلى البيت بقدر تافه من المال. كانت تنصحه بأن يدرب نفسه على ضبط النفس. وإذا ساءت الأمور، يجب ألاَّ ينفعل. وقد قالت هذا بعد أن فقدت ابناً. إذن لا يمكنه الموت ويترك والدته بدون

حتى ابن واحد. ترك ماكوي الماء يقطر من بين يديه. أجل، سيحيا أو سيكون على الأقل آخر من يموت، إذا كان لا بد من الموت. وتمنى أن يكتب الله له الحياة.

«على رسلك أيها الطبيب. استرخ. لقد أمسكت بك».

حملق الطبيب هينز في الرجل الذي وضع ذراعه حول كتفه ورأى صورة ضبابية لزميل رئيس الصيادلة، جون شمويك. استجاب الرجل لنداء الاستغاثة الذي أطلقه عندما كان على وشك الانجراف تحت سطح الماء. شكر الله على أن الجميع لم يصابوا بالجنون وأن الجميع لم يريدوا قتله. جره شمويك إلى مجموعته الفرعية برئاسة الضابط موينلو الذي، مثل بارك ورتش وغيرهما بمن فيهم مساعد الصيدلاني هارولد روبرت أنثوني Harold Rorbert Anthony والمجند ڤكتور ر. باكت Victor R. Backett، جازف بحياته لإنقاذ التائهين.

في هذه المجموعة الفرعية، كان الرجال الذين فقدوا عقولهم حتى الآن أقل عدداً من المجموعات الأخرى، كما أنهم لم يصرخوا من أجل الدم وإنما من أجل الماء. ولكن لم يكن بوسع هينز، أن يميز أي صوت الآن إلاَّ بشق النفس، إذ إن ذهنه كان مليئاً بالصور البشعة لتلك الليلة المرعبة. وأخيراً، نام بينهما. مد شمويك ذراعاً عبر ظهر سترة النجاة التي يرتديها هينز ورفع جسم الطبيب لكي يستطيع الاستلقاء على وركه.

استيقظ هينز عند فجر يوم الأربعاء، ووجد البحر «هادئاً

كالمرآة». شكر الله لأنه عندما حرّر نفسه من قبضة شمويك، غاص في الماء حتى عنقه، وقد فقدت سترة النجاة معظم طفويتها، ولم يكن بينه وبين الموت سوى ثلاث بوصات. وكلما اقتربت الشفاه من سطح الماء كلما ازدادت الرغبة في الشرب. ولكن هينز قاوم، ويعود ذلك جزئياً إلى شعوره بأنه إذا شرب فكأنه يدعو جميع الرجال إلى الانتحار معه.

في واقع الأمر، لم يكن الكثير من الرجال بحاجة إلى دعوة. وجد أحدهم جزيرة قريبة، جزيرة جميلة حيث تتدلى الثمار من أغصان الأشجار ويسري الماء النقي العذب في جداول صخرية، حتى إنه كانت توجد هناك نساء بعضهن أشبه بريتا هيوارث Rita Hayworth. وبصرخات من الحبور، بدأ العديد من الرجال يسبحون نحو الجزيرة، من بينهم الضابط مولنلو، الذي أصيب بالجنون وهو يحاول إنقاذ رجاله من الجنون.

شك الآخرون في ضرورة السباحة إلى جزيرة من أجل الماء العذب. سأل أحدهم الطبيب هينز: «أيها الطبيب، لو غصت مسافة عميقة جداً، هل يكون الماء أقل ملوحة؟».

أجابه الطبيب بالنفي.

وفجأة اندفع أحدهم من البحر وصاح: «لقد وجدتها، أيها الطبيب. لم تغرق السفينة في الواقع. إنها تحت سطح الماء مباشرة. أقسم أنها كذلك!».

أحاط عدد من الناجين بالرجل وهو يثرثر بشكل غير مترابط: «هل تذكرون برميل ماء الشرب الذي كان في المقصورة المحاذية لقاعة الجلوس ـ التي كانت باردة دائماً وفيها كمية من الماء الجيد؟ غصت إلى أسفل وفتحت البرميل. صدقوني، لقد فعلت ذلك... والبرميل في حالة جيدة... حين تشربونه، الماء عذب. ماء عذب. ماء عذب!».

حلت الهستيريا بالمستمعين. ماء عذب! غاصوا بالجملة نحو السفينة، بعد أن مزق العديد منهم سترات النجاة. أراد هينز اللحاق بهم. أجل، كانت السفينة هناك ـ تحت السطح مباشرة. استطاع أن يراها بأم عينه! كانت هناك، تومض وميضاً براقاً. ولكنه كبح جماح نفسه والتجأ إلى عالمه شبه العقلاني.

لم يعد معظم الرجال أبداً ولكن طفا بعضهم على سطح الماء، وصاح أحدهم بجنون: «لقد شربت من البرميل!... ماء، ماء، كل ما يمكنكم شربه من الماء موجود تحتنا مباشرة».

أجل، كل ما يمكنهم شربه! كان هينز يفكر بصفاء ليعرف أنهم قد سمموا أنفسهم حتى الموت، والآن لا يمكنه فعل أي شيء سوى الانتظار بضع ساعات لإعلان وفاتهم.

لم يشرب الجميع ماء... أتخم أحدهم نفسه بعصير البندورة بعد أن سبح إلى جزيرة حيث وجد براميل مليئة بالعصير. واستطاع آخرون أخيراً النوم في سرير. عندما رأى هينز صفاً طويلاً من الرجال

يقفون بانتظام وكل منهم يمسك بالآخر، أشبه «بجبهة من طحالب البحر»، سأل أحدهم: «لماذا يقف الرجال مصطفين؟».

همس البحار طالباً من الطبيب أن يصمت. وقال: «يوجد فندق هناك وننتظر دخوله. ولكن لا توجد فيه سوى غرفة واحدة ـ سرير واحد ـ وعلى كل منا انتظار دوره».

قال رجل آخر: «من الأفضل أن تقف في الصف، أيها الطبيب. سيحصل كل رجل على 15 دقيقة في الكيس. إنها صفقة جيدة!».

ولكن النوم الوحيد الذي حصل عليه الرجال هو سُبات الموت، إذ أخذ الواحد تلو الآخر يعاني من نوبات الصراخ ومن ثم يستسلم للماء في «البرميل». ظل هينز يعمل كرجل آلي؛ كان ينزع سترات النجاة بلا توقف ويتلو صلاة الرب، ويترك الجثث تنساب إلى البحر، يراقبها وهي تغوص ببطء في الأعماق أشبه بتماثيل من الشمع آخذة في الاضمحلال وتختفي في نهاية المطاف. لقد عمل جاهداً من قبل أيضاً ولكنه كان مسلحاً بالأمل. أمّا الآن، فقد تبخرت آخر بقية من الأمل؛ وقلة من الرجال، حتى أصفاهم ذهناً، أخذت تفكر في النجاة بعد الآن. ولكن من الغرابة بمكان أن هينز، بدون الجهد المتأصل في الأمل، وجد بعض الأمان في الاستسلام. وكما شرح للمؤلف لاحقاً: «تبلغ مرحلة لا تموت فيها بعدها، وإنما تظل تستمر إلى الأبد. تكيف نفسك مع الطبيعة. في البداية، تمقت كل المحيطين بك، ثم تتحملهم، ثم تعانقهم. يصبح الموت أحد أنماط الحياة».

سأل الملازم ماكيسيك البحَّار الشاب الذي كان يعمل في قسمه: «هل أنت متأكد من الحقائق؟».

لقد جذف الشاب نحوه في هذا الأربعاء الحارق وأخبره عن صقالة عائمة ليست ببعيدة تقدم خدمات للطائرات البرمائية، وأن براميل من الماء العذب كانت مستفة عليها. ولكن حين حاول الصعود على الصقالة، طرده صبي صيني يعمل في مطعم.

قال له الصبي: «إنك مجرد مجند ولذلك لا تستطيع الصعود على الصقالة أو الحصول على أي ماء».

ثم سبح الرجل عائداً وروى قصته إلى ماكيسيك باهتياج.

قال: «الآن بما أنك ضابط، لو سبحت معي إلى تلك الصقالة العائمة، يمكننا الحصول على بعض الماء أو العثور على مساعدة هناك».

وبما أن الخيالات والأوهام أخذت تراود ماكيسيك نفسه، لم تبد القصة له غير عقلانية. انتابته بعض المخاوف ولكن الشاب طمأنه.

«أجل، سيدي، أنا متأكد من أن بوسعنا الحصول على شيء لنشربه هناك».

حسناً، في تلك الحالة...

سبح الرجلان للعثور على الصقالة العائمة، وتوقفا ليستريحا قليلاً مع مجموعة الرجال التي انضم إليها الطبيب هينز. وعندما أخبر ماكيسيك هينز عن الصقالة العائمة، أبدى الطبيب تشكّكاً كبيراً.

قال: «إنها قصة يتعذر تصديقها. إنها مجرد هلوسة».

أجاب ماكيسيك: «لا أعرف إن كان عليّ أن أصدقها أم لا. الأفضل لي أن أشكّك فيها. ولكن، حسناً، لا أعتقد أن لدينا الكثير لنخسره إذا حاولنا العثور عليها».

وهكذا واصل الملازم والمبلِّغ رحلتهما الخيالية، وسبحا لفترة بدت وكأنها ساعات.

وأخيراً قال ماكيسيك وهو يلهث: «دعنا نتوقف ونستريح».

ثم فقد وعيه. وعندما أفاق، كان بمفرده. وبينما أخذ يبحث عن رفيقه، جذف رجل تجاهه وأمسك بسترة النجاة العائدة له محاولاً تمزيقها. يبدو أن سترة نجاة الرجل أصبحت مثقلة بالماء بحيث لم تعد صالحة للاستعمال ولذلك أحتاج إلى سترة أخرى لإبقائه حياً.

أفلح ماكيسيك في السباحة بعيداً ومعه سترة نجاة سليمة، ولكنه لم يعد يذكر ما هي وجهته. طاف بلا هدى وكان ذهنه عبارة عن سحابة من الأفكار غير المتماسكة وكان جسمه كتلة من اللحم الواهن.

منذ لحظة، ضرب الطراد إندياناپولس قذائف طوربيد، ولم يكن الضابط بلوم متأكداً البتة ما إذا كان الهول حقيقة أو مجرد كابوس. وبحلول يوم الأربعاء، اشتدت حدة أزمة الإدراك الحسي هذه وجاهد يائساً للمحافظة على سلامة عقله في وسط الجنون.

عندما أكد أحد الرجال، كما في مجموعة الطبيب هينز،

للآخرين أن الطراد كان تحت سطح الماء مباشرة وحثهم على الغوص للحصول على بعض الماء العذب. احتج بلوم قائلاً: «كلا، السفينة ليست هناك. إنها في الأسفل».

صاح أحدهم: «إنك تكذب. سأريك».

ونزع قرابة دستة من الرجال ستر النجاة وغاصوا إلى حتفهم.

يبدو أن بلوم نفسه أصيب بعدوى الجنون وبدأ يهلوس. تخيل مرة أنه كان في حديقة أسرته يلتقط البندورة ـ حبات بندورة كبيرة، حمراء وكثيرة العصارة. كم كان يحبها؟ ولكن حين عض، لم يكن هناك سوى لسانه المنتفخ. بدأ يقلق بشأن حالته العقلية، وبشأن حالة زملائه العقلية أيضاً. ضربه أحد الرجال. وقد يطعنه الآخر. اختفى الكثير من الرجال بالفعل. ومن بين الرجال الذين تجمعوا في البداية في هذه المجموعة والبالغ عددهم زهاء 150 رجلاً، لم يبق منهم سوى حوالى 35، إذ اختفى الباقون وسط صرخات في الظلام. في يوم الثلاثاء ليلاً، تمكن الملازم بلوم حتى من إيجاد محل على متن رمث دون أن يضطر إلى العراك من أجله.

كان بلوم، مثل ماكوي في مجموعته، مصمّماً على أن يكون آخر الناجين. ويعني هذا بالنسبة إليه ترك المجموعة وهو لا يزال سليم العقل. وجد ثلاثة من ضباط الصف كانوا مستقرين نسبياً واستنبط الأربعة خطة. سوف «يستعيرون» أحد الرماث مع جزء من حصص الطعام وينفصلون عن المجانين ـ وعلى أية حال، إذا جاءت الطائرات

للبحث عنهم، ستتاح للطيارين فرصة أكبر لرؤية مجموعتين بدلاً من مجموعة واحدة (لم يكونوا على علم بوجود مجموعات أخرى طافية في أماكن أخرى). واتفقوا على أن يلقوا في البحر أي رجل من الرجال الأربعة إذا بدت عليه علامة جادة من الاضطراب العقلي.

لعلهم يستطيعون إقناع الرجال الآخرين والضابط الأقدم ردمين بفكرتهم وذلك من أجل مصلحة الجميع. قالوا إن هدفهم سيكون التجذيف إلى ياب Yap، إحدى جزر بالاو، على مسافة 500 ميل والتماس العون هناك ـ وهو عمل أدرك بلوم، وهو ملاح مدرب، أنه يتعذر تحقيقه بالفعل.

انتقل بلوم وعصبته من رجل إلى آخر وهم يؤكدون على حسنات مجازفة كهذه، ثم عرض الملازم الخطة على ردمين. أبدى الملازم حذراً تجاه الخطة. هل كانت مجرد خدعة للحصول على بعض حصص الطعام؟ ولكن أخذ ذهنه يصبح ضبابياً أيضاً ولم يشأ أن يرفض على الفور أية فكرة مهما كانت بعيدة الاحتمال، يحتمل أن تفضي إلى الإنقاذ. سيدع المجموعة تقرّر.

نادى من على رمثه: «انتبهوا، أيها الرجال. لدي اقتراح».

ثم وصف الاقتراح.

استنتج أن هؤلاء الرجال «سيأخذون معهم رمثاً وقرابة ربع حصصنا، وبالتالي فإن الأمر يتعلق بنا جميعاً. سوف أطرح الاقتراح للتصويت».

حدق الضابط توايبل، وكان لا يزال في الماء، في وجه ردمين وهو ميال إلى الشك. أخبر المؤلف: «لقد أصابتني صدمة. لم أتعلم أبداً أن ضباط البحرية يطرحون على التصويت قراراً يريدون اتخاذه».

ولكنه تعلم أن الضباط الأدنى مرتبة لا يناقضون أبداً أوامر الضباط الأعلى مرتبة، لذلك لم يقل شيئاً. ويبدو أن رجالاً كثيرين ذهلوا بقدر ذهول توايبل؛ لم يسألهم أحد قط في سلاح البحرية من قبل التصويت على أي شيء. وانتابت الحيرة بعض الرجال الأدنى سلامة في العقل. لماذا الذهاب إلى أي مكان بينما السفينة قابعة مباشرة في الأسفل وعلى متنها كل الماء الذي يمكنك شربه؟ لم تكن الأمور حقاً سيئة إلى هذا الحد.

ثم قال ردمين وكأنه يرأس اجتماعاً لنادي الروتاري Rotary: «من يؤيد السماح لهؤلاء الأشخاص بأخذ الرمث والحصص فليرفع يده».

رفعت الغالبية أياديها. لقد قام بلوم ورفاقه بحملة موفقة.

«كم عدد المعارضين؟».

رفع نحو ستة رجال أيديهم، بمن فيهم توايبل وردمين نفسه.

قال ردمين مكتئباً: «لقد نجح الاقتراح». ولم يكن ردمين بحاجة إلاً لمطرقة كي يصبح التصويت رسمياً.

ولكن أخذ المنشقون ينشطون ويمطرون الرجال بحجج مؤداها أن الفكرة «سخيفة»، «حمقاء»، «أنانية»، وإهانة لذكائهم. أنصت المجانين ودعا ردمين إلى اقتراح ثان. صوت معظم الرجال ضد

الاقتراح هذه المرة. غير أن بلوم ومؤيديه رفضوا هذا النقض.

جرت جولة سريعة أخرى في الدائرة الانتخابية وكان الرجال يصرخون: «دعوهم يذهبوا. دعوهم يذهبوا!».

لم يستطع ردمين تجاهل القعقعات الجديدة، لم يكن يريد تمرداً على يديه.

قال: «من الواضح أن بعضكم قد غير رأيه ثانية. سنجري تصويتاً آخر».

وصوت الرجال ثانية لصالح السماح لفريق بلوم بالذهاب.

أعطى ردمين الملازم بلوم متردداً ربع الغذاء والماء فضلاً عن مجذافين وقميصين متسخين ليكونا بمثابة شراعين. سر بلوم حين ابتعد هو ورجاله على رمثهم. لم يعد هناك مزيد من البربرة أو الصرخات العاصفة. أخذ الكابوس يتحسن.

غير أن ردمين اعتبر ذلك بمثابة هزيمة شخصية، إذ إنهم قد فاقوه دهاء، ولكنهم سيدفعون غرامة، رغم أنهم لم يعصوا أية أوامر وإنما استفادوا ببساطة من قواعدهم الخاصة بهم، سيحيلهم إلى العدالة فيما إذا بقي هو وبقوا هم على قيد الحياة. في أثناء ذلك، يجب عليه الاستمرار في تهدئة الرجال. وهو ما فعله. لقد حانت اللحظة الكبيرة. ووفاء بوعده، سيوزع الآن أول حصص من الطعام والماء العذب، تناول قطعة بسكويت من علبة وتذوقها، ورماها باشمئزاز. كانت قاسية وجافة ولا يمكن ابتلاعها إلاَّ بشق الأنفس، مما يزيد في

ظمئه. وفي غضون ذلك، اضطر أول رجل يتذوق الماء إلى بصقه لكونه «قذراً ومالحاً». واضطر الرجال إلى الاكتفاء بلقمة صغيرة جداً من سبام وقرص من حليب الملت، وبالتالي ازدادت كآبتهم أكثر من أي وقت مضى. لقد كان يوماً رهيباً.

ولكن شاهد ردمين شذرة ذهب صغيرة في وسط حجارة من الفشل: رؤية بلوم وأصدقائه يتذوقون البسكويت والماء!

سيظل تصويت الرجال غير المستقرين يلاحق الملازم ردمين، إذ سيغير بعضهم رأيه مرة أخرى. ومع نقصان رمث واحد، ظل بعض السباحين غير قادرين على العثور على مكان على الرمثين الباقيين. كان من بين هؤلاء الرجال أدولفو سيلايا وصديقه المصاب الذي أخذت ساقه تزداد ألماً مع مرور كل ساعة ومع تقيح جروحه في الزيت والماء المالح. صمّم سيلايا على حشر صديقه على أحد الرماث.

نادى ردمين من الماء قائلاً: «أيها الملازم، ساعد هذا الرجل في الصعود إلى الرمث. إن إصابته خطيرة».

قبل أن يستطيع ردمين الرد، أحس سيلايا بشخص يدفع رأسه تحت سطح الماء، حيث بقي لعدة لحظات، وكان على وشك الغرق. وأخيراً، شق طريقه إلى أعلى وهو يسعل ويختنق.

شهق قائلاً: «من فعل هذا».

لم يعرف سيلايا ذلك أبداً. ولكن إذا كان قد نجا من الموت

بأعجوبة، فقد فات الأوان لإنقاذ صديقه المصاب. سبح المصاب بعيداً، وكانت آخر مرة شاهد فيها الرجل حين كان على قمة موجة على بعد مئتي متر وهو يلوح بذراعه بمثابة وداع على ما يبدو. راقب سيلايا ذلك وهو عاجز عن فعل شيء، وكان جسمه من الضعف بمكان بحيث لا يمكنه اللحاق به وكان ذهنه منفعلاً لدرجة أنه لم يستطع البكاء. أولاً هناك سانتوس بينا والآن صديق عزيز آخر. لقد ولّى... دون أن يبالي أحد على ما يبدو. ولم يكن الرجل حتى مكسيكياً.

وفجأة وسط هدير الأمواج، سمع سيلايا رجلين يتكلمان باللغة الإسبانية، وكان أحد الصوتين مألوفاً لديه. إنه سانتوس بينا! كان قد انتقل مؤخراً إلى هذه المجموعة من مجموعة أخرى، رغم أنه لم يكن بالإمكان معرفته بسبب وجهه الملطخ بالزيت. أحس سيلايا بالفرح. إذن لم يقتل صديقه من توسون على أية حال. ولكن لن تفارقه رؤية زميله الآخر وهو يلوح بإشارة الوداع. هل كان يمكنه إنقاذ الرجل؟ حتى ابتهاجه قد امتزج بالمعاناة.

لم تكن المعاناة على رمث غايلز ماكوي ممزوجة بأي ابتهاج. كان تعداد مجموعته سبعة عشر رجلاً، وأصبح الآن، الأربعاء ليلاً، خمسة رجال، كان اثنان منهم فقط بكامل وعيهم ـ هما ماكوي وفلتون أوتلاند Felton Outland. أما الثلاثة الآخرون بمن فيهم إدوارد بين، القروي الساذج من كنتاكي، فقد كانوا في غيبوبة وسيموتون، كما يبدو، في أية لحظة.

حتى ماكوي المرن تساءل عما إذا كان بإمكانه البقاء حياً في تلك الليلة. فقد استنزفت قواه وقوى آوتلاند رغم أنهما أفلحا في المحافظة على صفاء ذهنيهما عندما كانت الخيالات تهدِّدهما. وقد ساعد كل منهما الآخر من خلال تصميمه على أن يبقى آخر الأحياء. من كان يريد الرحيل وهو يبدو وكأنه الخاسر؟

كان ماكوي يتحدَّى صديقه بلا هوادة قائلاً: «تباً. سنرى من سيموت أولاً».

ردَّ آوتلاند: «أجل، سنرى!».

ولكن كان كلاهما يعرف أن الرابح لا يمكن أن يظل حيّاً لفترة أطول بكثير من الخاسر. وهكذا، استمر ماكوي في تهيئة نفسه للموت. لقد طهَّر ذهنه من الأفكار «الشريرة» وكفَّر عن جميع خطاياه. وعليه الآن تطهير جسده. مزَّق قميصه وقفز في الماء ثم حاول أن يزيل بالقميص الزيت عن وجهه وجسمه.

صرخ آوتلاند له قائلاً: «عُدْ إلى هنا. سوف تهلك بنفسك ـ أو ستلتهمك أسماك القرش اللعينة». لم يكن يريد كسب لعبتهما الرهيبة بطريقة غير منصفة.

ولكن واصل ماكوي فرك وجهه. عليه أن يكون نظيفاً حين يلقى ربه. ومع أن ما يقارب من 12 سمكة من أسماك القرش المتربِّصة بالقرب منه قد أخافته في بادىء الأمر، فقد اعتاد عليها الآن. يا للأوغاد الجبناء! لن تجرؤ الأسماك على مهاجمة رجل من مشاة

البحرية. ورغم أنه استنزف آخر احتياطي من طاقته، لم يتمكَّن من التخلُّص من الزيت. وأخيراً، عاد وصعد إلى الرمث وأوشك على الانهيار.

قال آوتلاند بشعور من الانتصار الزائف: «إنك لست قوياً جداً الآن. سأعمِّر أطول منك بكل تأكيد».

وفي صباح يوم الخميس، زار ردمين خالته في إنكلتره. وفجأة، حدث فيضان وعندما حاول السباحة إلى برِّ الأمان، أحسَّ كأنَّه يغرق...

كان ردمين يهلوس. أحسَّ ببرودة رذاذ الماء على وجهه. هل ينبغي له خرق القاعدة التي حدَّدها هو نفسه ويتذوَّق بضع قطرات؟ كم هي عذبة. لن تضر لو حاول تذوُّق قطرات قليلة. غرف بعض الماء بيديه وأخذ رشفة وأتبعها برشفة ثانية. وسرعان ما بدأ يصرخ كالمجنون بعدما غمرته مياه الفيضان. ثم هدأ ليعود فقط إلى هلوسته. في هذه المرة، أحسَّ برغبة عارمة يتعذَّر السيطرة عليها في القفز من على الرمث والغوص إلى السفينة. يجب عليه الوصول إلى غرفة المحرِّكات! يجب عليه إنقاذ رجاله!

كان الضابط توايبل قد أخذ معه مزرقة مورفين قبل إخلائه السفينة. أمسك بالملازم وأدخل الإبرة بفظاظة في ذراعه، ولكن دون جدوى تذكر.

صاح ردمين: «دعني أذهب. يجب أن أصل إلى غرفة المحرِّكات».

قال ردمين لاحقاً إنه لو كان مجنَّداً لربما سمح له بالغوص إلى حتفه في هذه المرحلة، إذ كان كل واحد في غاية الوهن وفي غاية التأقلم مع الموت. ولكن توايبل كان يكنّ للسلطة الأعلى احتراماً كبيراً للغاية بحيث لا يمكن أن يسمح لأحد رؤسائه بأن يموت، أياً كانت الظروف. إنها مسألة براغماتية محضة. وعلى أية حال، فإن واجب الضابط، حسبما تعلمه في أنابولس، هو إنقاذ المجموعة في الحالات الحرجة؛ وبالتالي في حالة إنقاذ أحد الضباط، فإنه ينقذ في نهاية الأمر العديد من الأرواح.

ولكن لم تكن حالة ردمين آنذاك تسمح بإنقاذ أي شخص ولا حتى إنقاذ نفسه. وإذ استمر في الهذيان، التقط توايبل علبة بسكويت كانت تعوم بالقرب منه وضرب ردمين بها على رأسه بطريقة فظة. سقط ردمين فاقد الوعي، وسنحت لتوايبل فرصة قيادة الكفاح من أجل البقاء رغم أنه شعر بانزعاج لأن عدد الضباط سينقص بمعدل ضابط واحد.

كم تبقى من الرجال له ليقودهم؟ كان هناك عشرات من الرجال يطفون حول أسطوله الصغير ـ ولكن كان معظمهم ميتاً.

* * *

تبعثر الرجال في مجموعة الطبيب هينز في منطقة واسعة وانجرفوا ومات الواحد تلو الآخر. ولكن قبل الظهر، تجمع نحو 25 منهم واتخذوا قراراً جريئاً. سوف يسبحون إلى لايته! أرعبت هذه الخطة

هينز وسبح على الفور إلى أولئك الرجال وحثهم على عدم الذهاب.

هتف قائلاً إن هذه الخطة عبارة عن انتحار محض.

أجاب رجل منهم: «إنها ليست انتحاراً وإن بوسعهم القيام بذلك. سوف تستغرق الخطة يوماً ونصف اليوم فقط. وهكذا سبحوا إلى اللانهاية.

في أثناء ذلك، كان الملازم ماكيسيك ينساب بلا دهى بالقرب من مجموعة أخرى من الرجال كانوا متجهين نحو جزيرة جديدة برزت فجأة في أذهانهم التي استحوذ عليها الخيال. انضم إليها في بحثه المسعور عن الأرض الموعودة الوهمية، وسرعان ما وجد نفسه يسبح في ما بدا له أنها تشبه مياهاً ضحلة.

صرخ أحد الرجال بلهجة المنتصر: «الجزيرة. هذه هي الجزيرة»!

أين؟

«تحت سطح الماء مباشرة. انظروا، هناك فندق! طعام وماء وكل شيء!».

في حين غاص بعض الرجال بتهور داخل الأعماق، أخذ ماكيسيك وغيره من الناجين الأكثر انضباطاً يطوفون حول المكان بانعدام حس، بانتظار دورهم للذهاب إلى أسفل.

أصبح الطبيب هينز فاقد الحس وهو يراقب معظم بقايا مجموعته التي كانت كبيرة في وقت ما تتلاشى في الأمواج.

وكما يروي في وقت لاحق: «لم يكن لدى من تبقى منا سوى فترة أطول بقليل للبقاء على قيد الحياة. أصبح انحلالنا شبه تام وكان من الصعب القول ما إذا كان الرجل ميتاً أو حياً».

حين كان يصطدم بشكل عائم آخر، لم يكن ليعرف ما إذا كان الرجل حياً إلاّ إذا فتح عينيه. وكما هو الحال في مجموعة ردمين، تجاوز عدد الأموات عدد الأحياء.

ويضيف: «عرفت أننا لا نستطيع العيش ليلة أخرى لأن أنوفنا كادت تلمس سطح الماء».

في هذا اليوم الرابع في الماء، حتى الرجال الذين كانوا تحت إمرة الكابتن مكفاي فقدوا الأمل تقريباً في النجاة. كان مكفاي وبحارته مستكنين على أرماثهم ولعلهم كانوا الأوفر حظاً من جميع الناجين.. وهي مصادفة حظ أزعجت القبطان حين علم بالمعاناة الشديدة في الأماكن الأخرى. كان لدى كل واحد من بحارته حيز على رماثه أكثر مما يكفي وكانت هناك كمية كافية من أقراص حليب الملت والسبام تكفي لمدة عشرة أيام ـ ومدها مكفاي إلى عشرين يوماً عندما بات متشائماً بشأن الإنقاذ المبكر.

كان رجال مكفاي منضبطين ومستقرين نسبياً لسبب آخر أيضاً ـ فقد كان القبطان الضابط الوحيد الذي لم يكن يجرؤ الناجون على تحديه أو مهاجمته بالنظر إلى خشيتهم المتأصلة من السلطة السامية. حقاً، فإن بعض الرجال، إذ غذى الجوع والظمأ جنون الارتياب

لديهم، راودهم شك في أن يكون القبطان قد خبأ بعض الحصص لنفسه. ومع ذلك، أطاع الجميع كل أمر أصدره، وتعزّز احترامهم له على نحو غريب نتيجة العلاقة الودية التي تطورت معهم. فقد ساعدهم على البقاء من خلال الأحاديث المشجعة التي صرفت أذهانهم عن تعاستهم. وما دام القبطان قال إنه سيتم إنقاذهم، وجدوا من الصعب الاعتقاد بإمكانية أن تكون سلطة بمثل هذه الأهمية على خطأ.

ولكن توقفت الأحاديث الشخصية والبوح الذاتي المتبادل عندما دب اليأس وأخذت الأذهان تنساق في كل اتجاه؛ وأصبح البصر، إن لم يكن قد أصابه التلف بالفعل، ضبابياً بعد أن أخذ الزيت الذي كان يغطي شعرهم يذوب في الشمس ويقطر على وجوههم. كما ضخّم سمك القرش الذي سرق كل السمك شعورهم باللاجدوى. وأخيراً استخدم أحد البحارة سكيناً عقيمة طولها بوصة واحدة وطعن المخلوق المزعج بين عينيه. فاندفع المخلوق يضرب بذيله وأوقع الرجل في البحر وكان على وشك أن يقلب الرمث رأساً على عقب. وأفلح رفاق الرجل في سحبه سالماً من فك القرش المسعور.

صرخ ثلاثة من الرجال في المجموعة: «سنموت. سنموت» رغم أن مكڤاي أكد لهم: «لن يحدث هذا. وسوف يتم إنقاذنا».

أخذت الشكوك تراود القبطان نفسه وهو يشاهد الطائرات تحلق فوقهم الواحدة تلو الأخرى ولكن دون أن تراهم. سعى إلى الحفاظ

على توازنه من خلال عدم التفكير في المستقبل والتركيز على الماضي.

وكما يروي لاحقاً: «أعتقد أن سبب استمتاعي بالحياة هو أنني أخذت أفكر في الساعات الكثيرة التي كنت أعود فيها إلى البيت بعد يوم منهك وأغتسل وأسترخي لبضع دقائق وأبتعد عن إزعاجات المكتب. فكرت في أنني أود بالتأكيد استعادة بعض تلك الأمسيات».

كان أوتا آلتون هافنز أحد الناجين الآخرين في مجموعة مكفاي وصمّم على الاستمرار في الحياة. أدرك أنه أحسن صنعاً بعدم زواجه من بيللي قبل الإبحار من سان فرانسيسكو، إذ كانت تخشى أن يتركها أرملة حرب. ولكنه لم يكن يفكّر في أن يموت الآن. ينبغي عليه ألاً يموت لمجرد أن موظفاً بيروقراطياً أحمق أخّر إرسال الأوامر بنقله. هل تُراه أخطأ عندما فكر في الالتحاق بالكهنوت ثمّ قرّر عدم فعل ذلك.

كان هافنز على استعداد لإبرام صفقة مع ذاته. حملق في السماوات وأعلن: «يا إلهي، إن كنت تعاقبني على عدم التحاقي بالكهنوت، سوف ألتحق به إذا أنقذت هؤلاء الناس».

سمع أزيزاً فوقه. هل كان الله يستجيب لدعائه بالفعل؟